قال الله تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}

من فوائد هذه الآيات:

١- قوله (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ):

الاستسقاء: استفعال؛ أي: طلب السقيا، ولم يذكر الله -عز وجل- ممن طلب موسى -عليه الصلاة والسلام- السقيا لكونه معلومًا، وهذا من الفصاحة في اللغة العربية.

٢- فيه بيان لِمَا يجب أن يكون عليه الداعي من الرحمة والرفق، فهذا موسى كليم الله -صلى الله عليه وسلم- كما ذُكر في الآيات السابقة من مقابلة بنى إسرائيل له بأغلظ الرد وأقبحه وأجرأ الطلب وأشنعه ومع ذلك لَمَّا عطشوا تولى بنفسه دعاء الله -عز وجل- بالسقيا لهم.

٣- ومعنى قوله -عز وجل-: (وَإِذِ اسْتَسْقَى): واذكروا نعمة الله عليكم زمان استسقاء موسى لكم فسقاكم.

٤- في قوله تعالى: (لِقَوْمِهِ): تربية على الإيثار؛ إذ قدَّم موسى -صلى الله عليه وسلم- قومه على نفسه مع حاجته كبشر إلى الماء.

٥- وفي قوله تعالى: (فَقُلْنَا): فيه إثبات صفة الكلام، وأنه كلام حقيقي مسموع سمعه موسى -عليه الصلاة والسلام-.

٦- في هذه الآيات سعة رحمة الله؛ لأنه يستجيب لمن التجأ إليه بإخلاص.

٧- في قوله تعالى: (اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ) فوائد منها:

أ- أن العبد إذا استسقى ربه فإنه ينتظر الماء من السماء، وهاهنا جاء الماء من الأرض، بل جاء من أقسى أجزاء الأرض، وهو الحجر، وفى هذا تعميق في القلب أن الله هو المتصرف في الكون والمدبر له فلا تقف أمام قدرته الأشياء لأنه لا يعجزه شيء.

ب- وفى تفجير الماء الذي به قوام حياة البشر من الحجر الميت اليابس تذكير لتلك القلوب المتحجرة أنه عليها أن تؤمن وترسخ الإيمان فتلين به وعندها تنفجر تلك القلوب حياة وانشراحًا ورحمة ونورًا.

ج- أن في قوله تعالى: (اضْرِب): حثًا على الأخذ بالأسباب، وأن الثمار بأسبابها، والنتائج بمقدماتها، ويؤيد ذلك قول الله -سبحانه وتعالى-: (وقل اعملوا ...) إلى آخر الآيه، وقول النبى -صلى الله عليه وسلم-: (اعملوا فكل ميسر لِمَا خُلق له).

د- وفيها أيضا أن الله -عز وجل- اختار لنبيه سببًا لا يعقله البشر وهو ضرب الحجر الصلد الميت من أجل تحصيل الماء الذي هو الحياة وفى هذا تعليم بين للناس أن أمر الله الثابت عنه لا يقاس بالعقول ولا يرد بالآراء ولا يحكم إلى الأهواء وإنما محض الاستجابة ظاهرًا وباطنًا عقيدة وقولاً وعملاً واختلف المفسرون في هذا الحجر المضروب هل هو حجر معين يحمله موسى عليه الصلاة والسلام فيكون انبجاس الماء خاص بضرب هذا الحجر وتكون الألف واللام في قوله (الحجر) للعهد وقول فريق آخرون أن الألف واللام للجنس والمعنى اضرب بعصاك أي حجر.

٨- وقوله تعالى: (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ) فيه أن كل قبيلة وسبط من أسباط بنى إسرائيل كانت له عين معلومة بحيث لا يظلم بعضهم بعضًا ولا يخشى المتأخر فوات مشربه.

٩- قوله تعالى (كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ) أي: كلوا من المن والسلوى مما سبق ذكره، واشربوا من هذا الماء، واعلموا أن ذلك كله من رزق الله، وهذا التذكير لتمام تعلق القلوب برازقها -سبحانه وتعالى-.

١٠- قوله تعالى: (وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ):

(تَعْثَوْا): أي: تخربوا، والمعنى: هذا رزق من الله لكم كسائر أرزاق الناس لا من حيث لونه أو طعمه أو سببه أو فائدته فلا يدعوكم هذا إلى الاغترار وطلب العلو في الأرض والعثو فيها فسادًا.

قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}.

* قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ}:

في هذه الآيات من الفوائد:

١- بيان حلم نبي الله موسى -عليه السلام-، وبيان صبره واحتماله؛ إذ يُخاطب بهذا الخطاب {يا موسى} العري عن الأدب، ثم يُراجع ويُطالب في كل مرة بما يدل على تعنت بني إسرائيل وقلة دينهم وسوء أخلاقهم، وهو مع ذلك -عليه الصلاة والسلام- صابرٌ محتسبٌ، محتملٌ لأذى قومه .

٢- وفي هذا ردٌّ على بعض الضُلاَّل من أمثال سيد قطب، الذي وصف نبي الله موسى -عليه الصلاة والسلام- بأنه عصبي المزاج.

* في قوله -عز وجل-: {فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} بيان أيضًا لمَا كان عليه بنو إسرائيل من غلظة القلوب وقسوتها، وقلة أدبها مع ربها في تقديمهم لأنفسهم على ربهم، وفي إضافة الرب إلى موسى وليس إلى أنفسهم، فقالوا: ربك، ولم يقولوا ربنا.

ومعنى {بقلها}: أي كل نبت أخضر لا جذع له، كالجرير والبقدونس والفول ونحوهم.

{والقثاء}: قيل هو الخيار.

{الفوم}: قيل هو الثوم، وهو في قراءة ابن مسعود، وجاء عن ابن عباس أنه القمح، وأما العدس والبصل فهو معلوم.

ومن هذه الآية يتبين لنا منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله وإقامة الشريعة في الأرض، أنَّ موسى -عليه الصلاة والسلام- بعد أن أغرق الله فرعونَ وجندَه، وخويت مصر من جيشها ومن ملكها وكانت الفرصة مواتية لرجوع موسى -عليه الصلاة والسلام- ببني إسرائيل إلى مصر والاستيلاء على ملكها ومع ذلك لم يصنع ذلك، بل جاء في الآثار أنهم

مكثوا أربعين سنة في هذا التيه، فهل يعقل بعد ذلك أن يقال: أن منهج الأنبياء هو الاستيلاء على الملك والقفز على الكراسي؟

بل الآية تبين كما تبين آيات كُثر أن منهج الأنبياء هو إقامة التوحيد في الأرض، وترسيخ أركانه في قلوب الناس بحيث إذا حصل ذلك -إقامة التوحيد في الأرض- حصل الاستخلاف من الله لعباده والتمكين لدينه، وحصول الأمن والأمان لهم.

وتبين الآية أيضًا أن بني إسرائيل لَمَّا جرى منهم ما هو أكبر دليل على جهلهم بربهم، وقلة أدبهم مع نبيهم، واحتقارهم لأوامر ربهم، وقلة صبرهم وازدرائهم لنعم الله عليهم؛ جزاهم الله من جنس عملهم، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة في ظاهر حالهم وباطنه.

* في قوله تعالى: {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}:

أي أنه لم يكن مما غنموه وحصَّلوه بعد كل هذه الآيات التي رأوها والمعجزات التي عايشوها والسنين التي أمضوها مع نبي الله موسى -عليه السلام- بعد أن نجاهم الله من فرعون إلا أن رجعوا بغضب من الله وسخط، فبئست الغنيمة غنيمتهم وبئست الحاصلة حاصلتهم.

ثُمَّ بيَّن الله -عز وجل- أن ما كان جزاؤهم الذلة والمسكنة وأن غضب عليهم بسبب كفرهم بآيات الله، وبسبب قتلهم الأنبياء بغير حق، وهذه سنة الله في كل مخالف لأوامره وسنن أنبيائه.

* قوله -عز وجل-: {بِغَيْرِ الْحَقِّ}؛ أي: أنهم قتلوا أنبياءهم على علم بهم وتعمد لجنايتهم فبئس ما كانوا يصنعون .

* قوله: {ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}: لأن الجزاء من جنس العمل، فلما عصوا ربهم استعصت عليهم أرضه وصعبت عليهم البلاد بحيث صاروا فيها مغلوبين مقهورين، ولَمَّا اعتدوا اعتدى عليهم غيرهم فعاشوا في الذلة والمسكنة.

وفي هذا عبرة لكل معتبر: أن فتح البلاد وانصياع رقاب العباد إنما يكون بطاعة الله، واتباع شريعته والاهتداء بهدي نبيه، فمن خالف خولف به.

الحكمة من مخاطبة بني إسرائيل المتأخرين بما صنعه المتقدمون

١- أن المتأخرين يمتدحون المتقدمين ويزكونهم، ويزعمون فضلهم على النبي وأصحابه، فبين الله من أحوالهم، وقص علينا من قصصهم ما يبين أن أسلافهم ما كانوا أهل الصبر ومكارم الأخلاق ومعالي الأعمال، فيبين بذلك فضل محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأصحابه -رضي الله عنهم- بغير مماراة.

٢- أن المتأخر معترف بفضل المتقدم، وأنه أرفع منه حالاً وأحسن منه طريقة، وأصلح منهم عملاً؛ فإذا تبين سوء ما عليه المتقدمين كان المتأخرون في السوء أولى، بل أشنع وأقبح.

٣- إن نعمة الله على المتقدمين نعمة واصلة إلى المتأخرين، كالنعمة على الآباء هي في الحقيقة نعمة على الأبناء أيضًا، وعلى هذا فكل من امتن الله به على المتقدمين يمتن اللهُ به على المتأخرين.

٤- أنهم لم ينكروا على متقدميهم سوء ما صنعوا وقبيح ما اقترفوا، وهذا يدلُّ على رضاهم بمعصيتهم، والراضي بالمعصية شريك فيها.

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.

في هذه الآية من الفوائد:

١- أن من بني إسرائيل قوم آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا ولم يشاركوا قومهم فيما وقعوا فيه من العصيان والنكران وقسوة القلوب وسوء الرد على نبيهم.

٢- وذكر الله هؤلاء حتى لا يظن في أتباع موسى -عليه السلام- أنهم كلهم على ما ذكره الله من عصيانهم واعتدائهم بل فيهم قوم آمنوا إيمانًا صحيحًا وعملوا صالحًا.

٣- أن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا صالحًا من بني إسرائيل هم كغيرهم من المؤمنين أتباع الرسل الآخرين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٤- قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}: عَلَمٌ على أتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- في مقابل الذين هادوا وهم أتباع موسى، والنصارى وهم أتباع عيسى، والصابئين وهم فرقة من النصارى كما رجحه الشيخ السعدي.

قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الخَاسِرِينَ}.

في هذه الآيات من الفوائد:

١- في الآية بيان لضعف إيمان بني إسرائيل وقلة دينهم إذ رفع الله الجبل فوقهم تخويفًا لهم عن ترك أخذ الكتاب وترهيبًا لهم عن أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ولولا رفع الطور فوق رءوسهم لَمَا استجابوا.

٢- قوله: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ}: أي: بعزيمة صادقة للإيمان به كله ولا تؤمنوا ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، وليس المقصود بتنطع وتشدد وغلو كما فهمه الخوارج.

٣- التقوى: وهي فعل المأمور واجتناب المحذور رجاء ثواب الله وخوفًا من عقابه.

٤- قوله: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ}: أي: أنه مع هذه الآية الظاهرة (رفع الطور) والتخويف بذلك واستجابتهم المؤقتة تولوا من بعد ذلك.

٥- قوله: {فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}: يُبين الله -عز وجل- أنهم مع نقضهم ميثاقهم وتركهم لكتابهم مما يستوجب عقوبتهم وإلحاق الخسارة بهم ومع ذلك تَفَضَّل الله عليهم بعفوه ورحمته فلم يصيروا كذلك -أي من الخاسرين-.

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}:

في هذه الآية من الفوائد:

١- أن الله لعن الذين اعتدوا في السبت فمسخهم قردة مسخًا حقيقيًّا وليس مسخ عقولهم.

مسألة: هل القردة والخنازير الموجودون الآن هي من القوم الذين مسخوا؟

الجواب: لا، فقد أخرج مسلم في صحيحه (٢٦٦٣): (قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه، الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ هِيَ مِمَّا مُسِخَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **إِنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا أَوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلاً، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ**).

٢- أن الله عذبهم بذلك لتحايلهم على شريعتهم بحيث أظهروا موافقة الشرع في مقاصدهم مع مخالفتهم في وسائلهم.

٣- ومن هذا نستفيد قاعدة عظيمة أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فإذا كان المقصد مشروعًا فلابد أن الوسيلة إليه مشروعة.

٤- ومن هذه الآية نستفيد القاعدة الأصولية: (وجوب سد الذرائع) وهو مذهب الإمام مالك ورواية عن الإمام أحمد، وسد الذريعة معناه ترك ما يجوز إذا كان وسيلة يقينية إلى ما لا يجوز؛ أي: ترك المباح الموصل بيقين إلى المحذور، وتحت هذه القاعدة تدخل مسائل كثيرة.